التحيزات المعرفية في مفاهيم العلوم الاجتماعية
مفهوم المواطنة نموذجا

الرن عبد القادر
جامعة بومرداس

مقدمة :

إن المصطلح "هو اللفظ الذي يضعه أهل عرف واختصاص معين ليدل على معنى معين يتبادر إلى الذهن عند إطلاق ذلك اللفظ ويغلب هذا في الأمور الفكرية والسياسية والاقتصادية والدينية والقانونية.

فتعبير "المواطنة" الذي شاع استخدامه لترجمة "Citoyenneté" يخرج عن المدنية والمدني ويستعير تعبير الوطن كأساس للاشتقاق، وهذا أمر لا يعكس، فحسب إشكالاً لغوياً وإنما أيضاً إشكالاً مفاهيمياً في المصطلح، ذلك أن المواطنة والمواطن تعبيران ارتبطا بنشأة الدولة القطرية الوطنية، المرتبطة بدورها بحدود قطر أو إقليم أو منطقة وبجماعة سكانية انتسبت إلى دولة نشأت في لحظة من لحظات العلاقات الدولية في النظام العالمي بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، فالاحتكاك بالفكر الغربي واقتباسه وتمثله لا يستند على الأرجح أرضية ثقافية لغوية متينة، من هنا نلاحظ أن ترجمة هذه المصطلحات والمفاهيم الغربية إلى اللغة العربية، إنما يتم بكثير من السرعة أو التسرع –حتى لا أقول بكثير من السطحية- مما يفقد المصطلحات والمفاهيم معناها وتأثيرها وفاعليتها الإجرائية لمعرفة وقعنا العربي وتحليله وتفسيره . ومن الأهمية بمكان التنبيه إلى تحريف الكلمة عندما تتحول إلى مصطلح يراد به معنى آخر قد يؤدي إلى قتل الكلمة أو دفنها أو تحويلها إلى سلاح يغزو العقول ويدمر الحضارات. حيث أن كثيراً من المصطلحات الحديثة شوهت حقائق التاريخ والمجتمع، وبالتالي تظهر لنا الأهمية ،والخطورة التي يكتسيها المصطلح في آن واحد،وعليه لابد من تحديد أهمية الكلمة وقدسيتها وتوظيفها لصالح البلاد والعباد.

أولا/ الإطار المفاهيمي للتحيز المعرفي:

1- تعريف التحيز:

التحيز ظاهرة إنسانية منتشرة بصورة واسعة و تشمل كل مناحي الحياة و ليست مقتصرة علي الجانب العلمي و الفكري فقط، إلا أن التركيز علي الجانب المعرفي هو الأساس في هذه الدراسة، في البداية يجب التطرق إلي التعاريف اللغوية و الاصطلاحية لكلمة التحيز.

1-1: التعريف اللغوي لكلمة "تحيز":

جاء في لسان العرب للابن منظور تعريف التحيز كما يلي: التحيز مشتق من فعل حاز، حوزا و حيازة، و حاز الشيء ملكه و ضمه إليه و حاز فلان حوزا سار سيرا لينا، و

انحاز القوم أي تركوا مراكزهم و معركة قتالهم و مالوا إلي موضع أخر، أما تحوز و تحيز فهي "تنحي" و كل من ضم شيئا إلي نفسه فقد حازه حوزا، والتحوز التليث و التمكث، والتحيز والتحوز التلوي والتقلب[1]، و الانحياز أي عدم الانضمام في المصطلح الحديث الذي يدل علي تفضيل شيء من بين أشياء[2]، كما نجد الأستاذ علي جمعة يضيف تفسيرا للتحيز فيقول : هي كلمة جاءت على وزن تفعيل ففيها معنى الطلب أي طلب حيز و هو الحد،فالمتحيز هو ما شغل حيزا في الفراغ[3].

و في القرآن وردت كلمة التحيز في الآية التالية : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ. وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"[4] فالتفسير لهذه الآية في مجملها لم يخرج عن الدلالة اللغوية التي تعني الانضمام إي التحيز و التنحي، و فيه لغتان التحيز والتحوز ومتحيزا ،منحازا ومنضما، أي هو الشخص الذي ينحرف من جهة إلى أخرى ليكون بإمكانه القتال، و إن المتحيز إلى فئة تمنحه و تعينه على قتال الكفار[5].

وعن أم سلمه " رضي الله عنها " قالت: قال رسول الله صلي اله عليه وسلم: " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضكُمْ أَنْ يَكُون أَلْحَن بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْو مِمَّا أَسْمَع مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْت لَهُ مِنْ حَقّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذهُ فَإِنَّمَا أَقْطَع لَهُ بِهِ قِطْعَة مِنْ النَّار" .6

من الحديث يتبين لنا أن النبي صلى الله عليه و سلم يحذر المتحكمين إليه من التأثير على قراره أو حكمه بغير حق،و هنا نرى إن مصادر التشريع الإسلامي و الجانب اللغوي للتحيز اخذ تفسيرات عديدة،و من بين المعاني التي أخذها المفهوم هو الميل إلى فئة دون سواها .[7]

1- 2 المعنى الاصطلاحي:

الجانب الاصطلاحي للتحيز و الدعوة الاجتهادية التي أطلقه الأستاذ عبد الوهاب المسيري *، الذي أعطى تعريفا ذو أبعاد شاملة انطلاقا من كونه –أي التحيز- واقعة و حركة لها بعد ثقافي و حضاري معين و تعتبر مقدمة إشكالية التحيز أهم مصدر في فهم التحيز حيث يحيد لهما الأستاذ المسيري مفردتان هما: الانضمام و الموافقة في الرأي و تبني رؤية ما،مما يعني رفض أراء الأخر وصياغة هذا التعريف تندرج في الجانب السلبي انطلاقا من صفة الحياد و التجريد و البراءة على المنهج و إثبات التحيز لها، كل هذه المفردات جاءت لتوضح مفهوم التحيز و لتقول أن المنهج ليس فارغا من محتويات فلسفية وعقائدية كما حاول بعض الباحثين إقناعنا[8].

كما يحدد المسيري التحيز في مفهومه العام من خلال نقطة أساسية معنونة بتحيزات النموذج المعرفي المادي ليقول بان تحيزات النموذج المعرفي الغربي الحديث نابعة من

وحدانيته المادية الناجمة عن تصفية ثنائية الإنسان و الخالق و من ثم ثنائية الإنسان و الطبيعة، فمركزية التوحيد خالق و مخلوق في فكر المسيري هي اكبر مفسر للقول بالتحيز و تجل لمحدودية الإنسان و نسبية معرفته في مقابل العلم المطلق الذي تختص به الذات الإلهية، فحسب المسيري العقل قاصر عن إدراك الحقيقة المطلقة و عاجز عن التفسير الشامل.[9]

والتحيز عند جمهور العلماء يشير إلى شكل من أشكال الذاتية المعرفية، فالمناهج العلمية المستعملة من قبل الباحثين و المحللين ليست محايدة تماما بل أنها تعبر عن مجموعة من القيم التي تحدد الرؤية والمسار البحثي و تقرر مسبقا الكثير من النتائج[10].

أما الأستاذ الدكتور نصر محمد عارف فيعرف التحيز على انه التمحور حول الذات و الانغلاق فيها و رؤية الأخر من خلالها وقياسه عليها مما يعني نفي الأخر نفيا كاملا خارج إطار التاريخ والعلم و السعي نحو استبدال ماهيته و هويته و إحلالها بمحتوى يتفق و معطيات الذات و أهدافها و ذلك بالقضاء على تفرده و خصوصيته و إعادة إدماجه في النسق الذي ترى الذات المتحيزة انه الأمثل طبعا بمنظورها للإنسان، الكون و الحياة.

و بالتالي أصبح واضحا لدينا أن البحث في التحيز هو البحث في تحيز محدد ضمن إطار نموذج غالب أو مركزية نموذج محدد و منه إغراق العالم به من خلال مفاهيم و مصطلحات و آليات و قناعات يظهر فيها التحيز لذلك النموذج بصورة كبيرة و هو بذلك يمثل حالة من الاستعمار العقلي و أن تبني العالم لمفردات تصورات نموذج واحد و تحولها إلى حقائق مطلقة و موضوعية يدخلنا هذا في دوامة التحيز من باب لكل واقعة و حركة بعدها الثقافي و تعبر عن نموذج و رؤية معرفية محددة.11

ثانيا/ استعمال مفاهيم العلوم الاجتماعية بين إدعاء الكونية والتجذر في الخصوصية الثقافية:

من العبارات الشائعة على ألسنة المثقفين وفي كتابات المفكرين والعلماء عبارة "أنه لا مشاحة في الألفاظ والمصطلحات". بمعنى أنه لا حرج على أي باحث أو كاتب أو عالم أن يستخدم المصطلح، أي مصطلح، وبصرف النظر عن البيئة الحضارية أو الإطار الفكري أو الملابسات المعرفية أو الفلسفية أو العقدية التي ولد وشاع فيها، فالمصطلحات والألفاظ ذات الدلالة الاصطلاحية هي ميراث لكل الحضارات ولجميع ألوان المعرفة ولكل بني الإنسان.

هذه العبارة تحتاج إلى ضبط لمفهومها حتى لا يشيع منها الخلط، فنحن إذا نظرنا إلى أي مصطلح من المصطلحات باعتباره "وعاء" يوضع فيه مضمون من المضامين، وبحسبانه أداة تحمل رسالة "المعنى" فنجد صلاحية الكثير من المصطلحات والألفاظ الاصطلاحية لأداء "الأوعية" "والأدوات" على امتداد الحضارات المختلفة والأنساق الفكرية المتعددة، والعقائد والمذهبيات المتنوعة وهنا سنكون حقاً أمام المعنى الدقيق

والصحيح لهذه العبارة (أنه لا مشاحة في الألفاظ والمصطلحات)، "أما إذا نحن نظرنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات من زاوية المضامين التي توضع في أوعيتها ومن حيث "الرسائل الفكرية" التي حملتها "الأدوات، المصطلحات" فسنكون بحاجة ماسة وشديدة إلى ضبط معنى هذه العبارة، وتقييد إطلاقها وتحديد نطاق الصلاح والصلاحية التي يشيع عمومها من عموم ما تحمل من ألفاظ، هنا سنجد أنفسنا عند الفحص والتدقيق ، وفي كثير جداً من الحالات وبإزاء العديد من المصطلحات، أمام أوعية عامة "وأدوات مشتركة بين الحضارات والأنساق الفكرية والعقدية المذهبية، وفي ذات الوقت أمام "مضامين" خاصة، ورسائل متميزة، تختلف فيها وتتميز بها هذه الأوعية العامة و"الأدوات" المشتركة، لدى أهل كل حضارة من الحضارات المتميزة، وعند كل نسق أو مذهب أو عقيدة من الأنساق الفكرية والمذاهب الاجتماعية والعقائد الدينية، وخاصة منها تلك التي امتلكت وتمتلك من السمات الخاصة والقسمات المميزة، مما جعلها ويجعلها ذات مذهبية خاصة وطابع خاص"[12] .

إذا كان الأمر كذلك فإن تحرير مضامين المصطلحات واكتشاف مناطق الاتفاق ومناطق التمايز في معاني ومفاهيم هذه المصطلحات وخصوصا تلك المصطلحات الأكثر شيوعاً والأكثر إثارة للجدل بين تيارات الفكر في عصرنا وفي واقعنا، هو مهمّة أساسية وأولية بالنسبة لأي حوار فكري حقيقي وجاد ينقذ حياتنا الفكرية من خطر الاستقطاب الحادّ .

النقطة الثانية التي يجب التنبيه إليها في هذا المقام هو أن استمرار التفاعل والعلاقات بين أجزاء الكيان البشري هو الذي يبلور طريقة أو أسلوب للحياة بين هؤلاء البشر، ونمطا للتفاعل بينهم وبين بيئتهم، كما تنتج من استمرار التفاعل والعلاقات بين البشر في مكان معين، وبمرور الزمن، ما يسمى بالنظم أو المؤسسات الاجتماعية، وهي مجموعة من القواعد والآليات التي تنظم سلوك الأفراد والجماعات، وهم بصدد إشباع حاجاتهم وخدمة مصالحهم وتحقيق أهدافهم، وللمؤسسات دور متميز وأثر كبير في ساكني المجتمع، فالمؤسسات والنظم وليدة مباشرة للعقليات وهي ترتكز جعلها، وعندما لا يكون التوافق بين هذه وتلك تماما يبدأ الاعتراض على النظم وتفقد من قوتها لأن البشر لا يحترمون حقا إلا بالقوانين التي يؤمنون بها، ويمكن إرغامهم على الطاعة لا على الموافقة وعندئذ تبدأ المقاومات السافرة والخفية.

"بكلمة أخرى يوجد ترابط وثيق الصلة بين المؤسسات من جهة والعقلية السائدة في المجتمع من جهة أخر، لأن المؤسسات تنشأ في وسط اجتماعي وحضاري معين، ولا يمكن أن تقوم بوظائفها على الوجه الأتم إلا إذا تلاءمت مع عقلية الأفراد والجماعات الذين يعيشون في هذا الوسط ومع ذلك يمكن القول أيضا أن المؤسسات هي نتاج وسط حضاري واجتماعي معين فإن بوسعها أن تقوم بالتأثير أيضا بدورها في هذا الوسط، أو بعبارة أخرى إن المجتمعات التي توجد فيها قطاعات متفاوتة من ناحية التطور بوسع المؤسسة أن تمثل القطاع الأكثر تطورا فيها، وأن تؤثر في القطاعات الأقل تطورا"[13].

هذه الرؤية تعتبر جد مهمة عند القيام بعملية المقارنة بين نظام الوقف والمجتمع المدني وذلك حتى لا يقع الباحث في مغبة الإستيلاب الحضاري أو التلفيق الفكري .

ثالثا/الجذور التاريخية والفكرية لمفهوم المواطنة

يعتبر مفهوم المواطنة من المفاهيم الرّحالة[14] - إن صح هذا التعبير- لأن هذه الأخيرة ترتحل من مجال معرفي إلى آخر، كما ترتحل من مكان إلى آخر، بالترجمة والنقل، كما أن ترجمة المصطلح تفرز إشكالاً مفاهيميا في اللغة العربية، ففي حين تجد اللغات الأجنبية الأوروبية تطابقا في الاشتقاق اللغوي والمفاهيمي معاً بين مصطلحات "،حي "Cité"،مواطن "Citoyen"، فإننا نجد في اللغة العربية والتراث الإسلامي مصطلح المدينة والمدنية، فتعبير "المواطنة" الذي شاع استخدامه لترجمة "Citoyenneté" يخرج عن المدنية والمدني ويستعير تعبير الوطن كأساس للاشتقاق، وهذا أمر لا يعكس، فحسب إشكالاً لغوياً وإنما أيضاً أشكالاً مفاهيمياً في المصطلح، ذلك أن المواطنة والمواطن تعبيران ارتبطا بنشأة الدولة القطرية الوطنية، المرتبطة بدورها بحدود قطر أو إقليم أو منطقة وبجماعة سكانية انتسبت إلى دولة نشأت في لحظة من لحظات العلاقات الدولية في النظام العالمي بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، ، "فالاحتكاك بالفكر الغربي و اقتباسه وتمثله لا يستند على الأرجح أرضية ثقافية لغوية متينة، من هنا نلاحظ أن ترجمة هذه المصطلحات والمفاهيم الغربية إلى اللغة العربية، إنما يتم بكثير من السرعة أو التسرع –حتى لا أقول بكثير من السطحية- مما يفقد المصطلحات والمفاهيم معناها وتأثيرها وفاعليتها الإجرائية لمعرفة وقعنا العربي وتحليله وتفسيره"[15].

يظن كثير أن "المواطنة" تعني "حب الوطن"، ولكن الحقيقة أنها لا تعني ذلك فقط، بل هي مفهوم غربي بدأ قبل الميلاد مع الحضارتين اليونانية والرومانية، وكان له معنى خاص في هاتين الحضارتين، وكان هناك تمييز بين مضمون المواطنة في كل من مدينة "أثينا"، ومدينة "إسبارطة"، المدينتين اليونانيتين، ثم أخذ معنى آخر في مرحلة العصور الوسطى في أوروبا، ثم أصبح له معنى ثالث في العصور الحديثة، ونحن سنلقي الضوء على هذه المعاني وتطوراتها، ثم سنرى صورته الحديثة في عالمنا العربي

عند استقراء التاريخ نجد أن طبيعة التنظيم السياسي في أوروبا خلال القرون الوسطى كانت تتمظهر في شكل إمبراطورية دينية إقطاعية ، تحالف فيها رجال الدين ورجال الإقطاع، وكانت مرحلة ظلام وتخلف، وقد اتسمت -تلك المرحلة- بالحجر على العقل والعلم واتسمت كذلك بكبت الشهوات وازدراء الدنيا، مما أدى إلى الثورة على هذه المظالم في مجالي النفس والعقل، وأدى إلى انبثاق مرحلة جديدة، تبلورت من روابط جديدة خارج إطار الدين المسيحي الذي كانت تفرضه الكنيسة، ومن هنا نشأت "الأمة والدولة والوطن"، وأبرز مثال على ذلك فرنسا التي تطابقت فيها الأمة مع الدولة، وارتبط بالأمرين السابقين الوطن الفرنسي، وكانت كل تلك العناصر: الأمة والدولة والوطن تقوم على حقائق ثقافية وسياسية

وجغرافية وتاريخية. ونشأت على ارتباط بالحقائق السابقة (المواطنة) التي تقوم على محتوى ومضمون ثقافي وسياسي وجغرافي وتاريخي.

لم تتبلور "المواطنة" بهذا المضمون إلا في العصر الحديث، ففي البداية كانت المسيحية متنافرة مع المواطنة الرومانية، لأن المسيحية ليست في الجوهر دينا دنيويا، ولأنها قد علمت أتباعها أن العالم الدنيوي فاسد ولا إمكانية لعودته إلى الصلاح، فالحياة الصالحة على هذه الأرض لا تكون إلا تحضيرا تقريبيا وغير واف لحياة الآخرة الصالحة في ملكوت السماوات.

وقد ربطت الثورة الفرنسية المواطنة بدفع الضرائب، وقد ميزت الثورة الفرنسية بين المواطن الفاعل والمواطن السلبي، فالمواطن الفاعل هو الذي يدفع ضرائب مباشرة تساوي أجر ثلاثة أيام عمل لمن هم دون مستوى المهارة العليا، وقد كان للمواطنين الفاعلين أن ينتخبوا في المرحلة الأولى ممثليهم الذين سيكونون ناخبين في المرحلة الثانية على أن يدفعوا بدورهم قيمة عشرة أيام عمل على الأقل ضرائب مباشرة، وقد كان المطلوب من النائب أن يكون من دافعي الضرائب بما يوازي أجر خمسين يوم عمل، ترجمت ماليا على أنها مارك فضي.

وقد اعتبرت المواطنة في إنجلترا في فترة من الفترات مرتبطة بدفع الضرائب أو بامتلاك بيت في المدينة، لكن مبدأ "المواطنة" اتخذ منحى عنصريا في القرن العشرين في ألمانيا على يد النازية، وقد اعتبرت القوانين الألمانية أن المواطن هو ذلك النابع من دم ألماني، واعتبرت كذلك أن ألمانيا وطن لجميع الألمان حيثما كانوا، واعتبرت الشعب الألماني فوق الجميع، ولم يكن إنكار حقوق المواطنة بمعيار العرق مقصورا على ألمانيا، بل تعدى ذلك إلى جنوب أفريقيا والولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأميركية، حيث خضع الشعب الأسود لنظام التمييز العنصري، وأنكرت حقوق المواطنة له بناء على كونه أسود.

في المقابل لم تتشكل "الأوطان" في منطقتنا العربية نتيجة تفاعل عناصر "ثقافية وسياسية واجتماعية"، كما حدث في الغرب بل تشكلت نتيجة "قرارات سياسية"، بل "مقايضات سياسية" من قوى خارجية وهي الدول الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى، فمن المعروف أن الأوطان: العراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، تشكلت بعد محادثات بين سايكس وبيكو وزيري خارجية إنجلترا وفرنسا غداة الحرب العالمية الأولى، واتفاقهما على تقسيم المنطقة وفق مصالحهما من جهة، ووفق ترتيبات مع أطراف إقليمية كالمسيحيين في لبنان، واليهود في فلسطين من جهة أخرى.

لذلك لم تكن هذه الدول "أوطانا" بل "تقسيمات سياسية" جرت في أجواء مقايضات سياسية دون اعتبار لأي قيم، ودون مراعاة لأي معايير موضوعية عند إقامة هذه الدول، ويمكن أن نقدم مثالا على ذلك بولاية الموصل، فهي أقرب إلى المناخ السوري منها إلى

المناخ العراقي، ومع ذلك ألحقت بالعراق لأن الإنجليز يريدون البترول الذي فيها، وألحق دير الزور بسوريا مع أنها أقرب إلى المناخ العراقي، وقد ألحقت بسوريا تعويضا لها عن الموصل.

الآن: بعد مائة سنة على نشوء هذه الأوطان في سوريا والعراق ولبنان والأردن ومصر والسودان والجزائر... هل تكونت المواطنة؟ وهل أصبحت قيمة فاعلة ذات وجود في قلوب وعقول سكان هذه البلدان؟

لا لم تتشكل وذلك لأن القيادات القومية العربية التي حكمت العالم العربي فشلت في إنشاء روابط جديدة، ليس هذا فحسب بل عملت على تدمير الروابط القديمة، حينما ألغت دور الدين في بناء الأمة، وقررت أن الأمة في منطقتنا العربية تقوم على عنصري اللغة والتاريخ، وقررت محاربة الدين الإسلامي، واعتبرت أن دوره سلبي في بناء الشخصية العربية. وأنه يغيب العقل والوعي، وأنه يغذي الأوهام والخرافات والخزعبلات، وقد قررت كل ذلك ليس نتيجة دراسة موضوعية للتاريخ الإسلامي بل قررت ذلك قياسا على سلبية الدين المسيحي أثناء عصور الانحطاط الأوروبية، وأن إزاحته كانت سببا أساسيا في نشوء النهضة وقيامها.

إن توجه القيادات القومية العربية في سوريا ومصر والعراق والجزائر.. إلى تدمير الروابط القديمة التي أنشأها الدين الإسلامي، وعجز القيادات القومية عن إنشاء روابط جديدة على مستوى (الأمة-الوطن)، جعلها تلجأ إلى إحياء روابط طائفية أو عشائرية من أجل تحقيق سيطرتها على شعوب المنطقة فاستغل حافظ الأسد الطائفة العلوية من أجل إحكام سيطرته على سوريا، واستغل صدام حسين عشيرة تكريت من أجل إحكام سيطرته على العراق، واستغل أنور السادات ومن بعده حسني مبارك عصبية المنوفية من أجل إحكام سيطرتهما على مصر.

الخلاصة أن "المواطنة" مفهوم ذو مضمون ثقافي وسياسي واجتماعي واقتصادي ... إلخ، ولا يعني حب الوطن فقط، وهو مرتبط بتكون (الوطن-الأمة) نتيجة عناصر ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية ودينية في عصور متتالية، وقد فشل الفكر القومي العربي الذي قاد المنطقة في المائة سنة الماضية في توليد قيمة "المواطنة" لأنه فشل في تحديد عوامل بناء الأمة، لذلك لجأ إلى الروابط الدنيا من طائفية وقبلية، وعمل على إحيائها من أجل إحكام سيطرته على شعوب المنطقة.

رابعا/ جدلية الأمة والمواطنة في الفكر الإسلامي:

يشكل المصطلح الإسلامي أحد الرموز الثقافية والحضارية المهمة الدالة على خصوصية الأمة الإسلامية، وهو أحد المكونات الأساسية لهويتها الحضارية، بل إن بعض الباحثين يعتبر المصطلح جزأ لا يتجزأ من النظرية السياسية في الإسلام، وقد جرى التعامل

مع المصطلح الإسلامي بأسلوبين متناقضين أحدهما أسلوب التفريط والآخر هو أسلوب الإفراط، فالبعض يتخلى عن المصطلح الإسلامي ويميل إلى المصطلحات الأجنبية بحجة الحداثة والعصرنة، وهناك من يجمد على الموروث من المصطلحات الإسلامية بلا تمييز بين ما هو من الثوابت الشرعية وما هو كسب بشري ناجم عن الاجتهاد ويعتريه الخطأ والتقادم وإذا كان الموقف الأول ينتصر للتغرّب الثقافي ويرفض الأصالة والخصوصية فإن الموقف الثاني يتجاهل التطور المستمر في حركة الحياة.

إن المصطلح "هو اللفظ الذي يضعه أهل عرف واختصاص معين ليدل على معنى معين يتبادر إلى الذهن عند إطلاق ذلك اللفظ ، ويغلب هذا في الأمور الفكرية والسياسية والاقتصادية والدينية والقانونية، وليس في الحديث اليومي لبني البشر"[16].

ومن الأهمية بمكان التنبيه إلى تحريف الكلمة عندما تتحول إلى مصطلح يراد به معنى آخر قد يؤدي قتل الكلمة أو دفنها أو تحويلها إلى سلاح يغزو العقول ويدمر الحضارات. حيث أن كثيراً من المصطلحات الحديثة شوهت حقائق التاريخ والمجتمع، وبالتالي تظهر لنا الأهمية ،والخطورة التي يكتسيها المصطلح في آن واحد، ويكون المصطلح إسلامياً إذا كان مستمدا في لفظه ومعناه من الأصول الإسلامية، أو كان لا يتعارض في فكره وفحواه مع الفكر الإسلامي، وإذا كان دور الفكر الإسلامي هو الاضطلاع بقضايا عصره ومواجهتها بموقف نقدي، فإن الخطوة الأولى التي ينبغي أن يقوم بها هي العمل على التصدي بالتحليل والنقد للقضايا الأساسية في الفكر المعاصر من موقع الالتزام بالعقيدة الإسلامية، انطلاقا من ضرورة مواجهة التحديات التي يفرضها النظام العالمي الجديد على المسلمين وشعوب العالم أجمع، وطرح البدائل الممكنة لهذه المشاريع الوافدة. وعليه لابد من تحديد أهمية الكلمة وقدسيتها وتوظيفها لصالح البلاد والعباد.

و من المؤكد أن البديل الحضاري لا يمكن وضعه بين عشية وضحاها، لأن الأرضية الثقافية الغربية هي التي تغذي الدراسات الاجتماعية وترفدها بالمناهج والمصطلحات والنظريات الغربية في الجامعات العربية والإسلامية،إلا أنه من واجبنا اليوم أن نثبت أقدامنا، ونعمل عقولنا في التحقق من ذاتنا وإدراك حقيقة كياننا لننتقل من حال إلى حال، فمن المهم جدا أن نكون قادرين على الفعل والحركة بان نسلك المنهج الملائم لرصد ودراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية بأسلوب علمي، وبمفاهيم ومصطلحات تلاءم وتناسب مجتماعاتنا وأهدافها، وبروح الاستقلال الفكري، ورفض كل أشكال التبعية للآخر. إن العلم منهج قبل أن يكون نتاجا ومضمونا، وأهمية المنهج في العلوم الإنسانية والرياضية أنه يساهم في التنظير للفكر أي انه أساس البناء النظري، لهذا كان من الضروري التفكير الجدي من أجل تحرير العلوم الإنسانية والرياضية من هيمنة المناهج الغربية والتفكير بصفة جدية في العمل على إيجاد بدائل إسلامية.

الهوامش :

[1] - جمال الدين ابن منظور،لسان العرب، المجلد الخامس (لبنان: دار الكتب العلمية، د ن س)، ص 588.

[2] - المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، ط 4، (مصر: مكتبة الشروق الدولية، 2004)، ص 206.

[3]- عبد القادر سعيد عبكشي، التحيز في تحديد المصطلح السياسي الحديث، (الجزائر: رسالة ماجيستر، 2008)، 18.

[4] - القرآن الكريم، **سورة الأنفال** ،الآية 15، 16.

[5] - عبد الرحمن بن نصر السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، قدم له الشيخ محمد صالح بن العثيمين، ط 1 (مصر: مكتبة الصفاص)ص 266

*- عبد الوهاب المسيري(1938-2007)،باحث مصري معاصر تخرج من جامعة الإسكندرية ، قسم اللغة تخصص لغة انجليزية سنة 1959، التحق بجامعة كولومبيا سنة 1963 و تحصل علي الماجيستر عام 1964، و درجة الدكتوراه سنة 1969. شغل منصب أستاذ في قسم اللغة الانجليزية في كلية البنات في عين الشمس و عين خبيرا للشئون الصهيونية بمركز الدراسات الإستراتيجية بالأهرام من أشهر اعماله موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية بالإضافة إلي عديد الأعمال منها العالم من منظور غربي.

[6]- صحيح البخاري.

[7] - وهبة الزحلي، تفسير المنير في العقيدة و المنهج و الشريعة، ط1، (سوريا: دار الفكر، 1991)، ص،325.

[8] - عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز: رؤية جديدة و دعوى الاجتهاد، ج1، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995)، ص، 15 .

[9] - نفس المرجع، ص17، .

[10]- احمد مرزوق، مفهوم التحيز: دراسة في بعض تحيزات الأستاذ المسيري، (فرجينيا: مجلة إسلامية المعرفة، 53، صيف 2008)، ص63.

[11]- نصر محمد عارف، التنمية من منظور متجدد: التحيز، العولمة ،ما بعد الحداثة، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية و الإستراتيجية، 2002)، ص 37، 38.

[12]- محمد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1997، ص4.

[13]- صادق الأسود، علم الاجتماع السياسي، المرجع السابق الذكر، ص79.

[14]- الطاهر عزيز، "من عالم إلى آخر: المفاهيم الرّحالة" مجلة المناظرة، الرباط :العدد1 يونيو، 1989، ص137- 139 .

[15]- مصطفى الدندشلي، تعقيب على محاضرة : السيد يسين : مستقبل المجتمع المدني : الأزمة الثقافية ومستقبل المجتمع المدني، ندوة المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ص816.

[16]- محمد عبد الجبار،" المصطلح الإسلامي في عالم متغير" ، صحيفة الحياة ، لندن: العدد (13600) آب/ أغسطس 1418هـ/1998م، ص13.